البيانُ النبوي وتَنَوُّعُ أساليبِ الأداءِ

دكتـــور

عبد المنعم على عثمان

مدرس البلاغة والنقد الأدبي والأدب المقارن

كلية الآداب بأسوان – جامعة جنوب الوادي

منح الله – سبحانه و تعالى – نبينا – صلى الله عليه وسلم – من كمالات الدنيا و الآخرة ما لم يُمنح غيره ممن قبله أو بعده ؛ فمن ذلك كلامه المعتاد ، و فصاحته المعلومة .

وكلام النبوة دون كلام الخالق ، وفوق كلام فصحاء البشر ، فيه جوامع الكلم ، ومعجزات البلاغة والفصاحة ، وهو كثير مستفيض ، وحصر البليغ منه ممتنع معجز ؛ لأنه كله بليغ فصيح [١] .

والنبى – صلى الله عليه وسلم – أفصح العرب قولاً ، وأبينهم كلاماً ، و أعلاهم بلاغة ، و قد وصف الجاحظ (ت ٢٥٥ هـ) كلام النبى – صلى الله عليه وسلم – فقال : " هو الكلام الذى قل عدد حروفه ، و كثر عدد معانيه ، وجلّ عن الصنعة ، و نزه عن التكلف ، و كان كما قال الله – تبارك و تعالى – قل يا محمد : (وما أنا من المتكلفين) [٢] ؛ فكيف وقد عاب التشديق ، و جانب أهل التقعيب [٣] ، واستعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر . . . ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أقصد لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعًا ، ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح معنى ، ولا أبين عن فحواه – من كلامه – صلى الله عليه وسلم – " . [٤]

وإذا تأمل متأمل فى أسلوب كلامه – صلى الله عليه وسلم – وجده أسلوبًا فريدًا متميزًا عن أساليب المنشئين قاطبة ، قد تفوق على غيره بأسباب طبيعية فيه ، " والأسلوب واقعة دلالية ، وإن كان أول ما نكتشفه من هذه الواقعة تشكيلها اللغوى ، غير أنه من الخطأ أن نقصر الأسلوب على التشكيل اللغوى ، وسواء زعمناه اختيارًا أو انحرافًا ، أو حتى انتهاكًا منظمًا ؛ فمما لا شك فيه أن الأمر يتعلق بدلالة تستوجب طرائق أداء متميزة " . [٥]

وتتنوع طرائق الأداء النبوى تَنَوُّعًا يستحق أن يُفرد له بحثٌ مستقلٌ يكشف عن قوة البيان النبوى النابعة من حرصه – صلى الله عليه وسلم – على أن لا يأتى بيانه من وادٍ واحدٍ ؛ بل هو بيان تتنوع فيه أساليب الأداء حسب تنوع المواقف والأحداث ، وحسب اختلاف السياقات ومقتضيات الأحوال ؛ فانتقاء مفردات بعينها دون أخرى ، وانتخاب تراكيب خاصة دون غيرها تبعًا لما يقتضيه السياق – أمر يكشف عن قدرة خاصة على بناء عالم النص النبوى المتميز والفريد .

فقد كان الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – حريصاً على أن ينوع فى أساليب الأداء فى حديثه بما يضمن قوة التأثير فى نفوس سامعيه ، دونما تكلف ، أو طلب لوسيلة من وسائل الصنعة حتى لا يجاوز بكلامه مقدار الإبلاغ فى المعنى الذي يريده ؛ فلا جرم كان منطقه – صلى الله عليه وسلم – على أتم ما يتفق فى طبيعة اللغة ، وما يتهيأ لها فى إحكام الضبط ، وإتقان الأداء . [٦]

وقد جمع الرسول – صلى الله عليه وسلم – خصالاً من إحكام الأداء ، لا يشاركه فيها منطق أحد ، ولا تتوافى إلى غيره ، ولا تتساوى فى سواه ، وقد قالت السيدة عائشة – رضى الله عنها : ما كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يسرد كسردكم هذا ؛ أي لا يتابع الكلام على الولاء والاستعجال به ، ولكن كان يتكلم بكلام بَيِّنٍ فَصْلٍ ، يحفظه من جلس إليه .

وفى رواية أخرى عنها أيضاً : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يُحَدِّثُ حديثاً لو عَدَّه العَادُّ لأحصاه ، والرسول – صلى الله عليه وسلم – فى هذه الصفات الأدائية ما ارتاض لها رياضة ، أو تكلف تدريباً عملياً ؛ بل خُلِقَ مُسْتَكْمَلَ الأداة فيها ، ونشأ مَوَفَّرَ الأسباب عليها ، كأنه صورة تامة من الطبيعة العربية . (٧)

وحين يقوم باحث بدراسة هذا التنوع فى الأداء النبوى لا يقصد إلى التعميم فى البحث والدراسة ، بقدر ما يقصد إلى الكشف عن أسرار التَّفَنُّن فى الفصاحة المحمدية ، وإلى البرهنة على قوة البيان النبوى من خلال استعراضٍ مُوجَزٍ لبعض التنويعات الأسلوبية فى هذه النصوص النبوية الخالدة ، فى ضوء الدرس الأسلوبى الحديث الذى يهتم بما يلفت النظر من ظواهر الأسلوب الفريدة من نوعها دون النظر إلى ما هو معتاد .

فالبيان النبوي يكثر من استعمال أساليب أدائية متنوعة ليحقق المنشود ، ويبلغ المراد من دعوته ، وهذا البحث يسوق طائفة من هذه الأساليب المتنوعة قد أكثر من استخدامها النبي – صلى الله عليه وسلم – ليقرر بها الدين في نفوس المؤمنين :

أولاً : أساليب التشويق والإيقاظ : –

١ – الاستفهام : –

ومنه الاستفهام التحضيضى ، وهو كثير فى البيان النبوى ، وتدخل فيه همزة الاستفهام على (لا) ، ومنه ما جاء عن عوف بن مالك الأشجعى – رضى الله عنه – قال : كنا عند النبى – صلى الله عليه وسلم – تسعة أو ثمانية أو سبعة ؛ فقال : " ألا تبايعون رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ؟! ، فبسطنا أيدينا وقلنا :عَلامَ نبايعك يا رسول الله ؟ ، قال : على أن تعبدوا الله تعالى ولا تشركوا به شيئاً ، وتصلوا الصلوات الخمس ،وتسمعوا وتطيعوا وأسر كلمة خفية قال : ولا تسألوا الناس شيئاً ، قال : فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً أن يناوله " . (٨)

وفى هذا الحديث عرض المبايعة من النبي – صلي الله عليه وسلم – على الصحابة – رضوان الله عنهم – بطريق الاستفهام التحضيضى ، وفيه من اللطف وجلب الامتثال ، وتحريك كامنة المخاطب ما لا يتأتى بصيغة الأمر (بايعونى) وحدها ؛ لأنه يشعر المخاطب بشخصيته ،

وأنــه طرف حــر السلوك والاختيار ، خلافاً لظاهر صورة الأمــر الــذى يوحى بالعلو والإلزام ، وذلك التلطُّف فى الطلب أولى بلباقة الداعى – صلــى الله عليه وسلم – لأنه فى معدن فصاحته ، وأحــد جذور خلقــه العظيــم ، وفــرع من فروع رحمته ورأفته بالمؤمنين ، كما أن مبايعتهم له بوصفــه رسول الله ، وليس بوصفه محمدًا .

٢– ضرب المثــل : ــ

كمــا فى قولــه – صلى الله عليه وسلم – فى فضل من عَلِمَ وعلَّــم :

" مثل ما بعثني الله بــه من الهــدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصــاب أرضاً ؛ فكان منها نقيــة قبلت الماء فأنبتت الكــلأ والعشب الكثــير ، وكانت منها إخاذات أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشــربوا وســقوا وزرعوا . وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك مــاءً ، ولا تنبت كلأً ؛ فذلك مثل من فقه فى دين الله ، ونفعه مــا بعثنى الله به فعلم وعلّم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هــدى الله الــذي أرسلت به ". (٩)

فالحديث يصور أحوال الناس مع شريعة الإسلام فى فهمها والعمل بها ، وقبــولها والصــد عنها ؛ فيجعلهم طائفتين ، ويجعل الأولى فى نوعيــن : نافــع ومنتفع على وجــه الكمال ، ونافع على وجــه الكمال غير منتفــع على وجــه النقص ؛ أما الثانية فهى غير نافعة وغير منتفعة ، وترشد إلــى هذه القسمة نهاية الحديث التى جعلت المُمَثَّــل له طائفتين متقــابلتين فــى الصيغة .

وقد جاء الحديث علي سبيل المثل ، وضرب المثل مــن الأســاليب التي تشوق السامع إلى الخبر ، وتمكنه من نفسه ، وتجيل فكره فيه التقاطــاً لحكمته .

فتمثيل من فقه فى دين الله تعالى ، وانتفع بما بعث بــه رســوله – صلي الله عليه وسلم – فعلم وعلّم بالطائفتين الصالحتين من أرض طيبة قــد أخرج هؤلاء – وإن كانوا ممن يتناولهم الحــس – فى صورة حسية أوفــى بالغرض ، تملأ النفس إعجابا وروعة : كم يعرف العربــى فــى صحرائــه المضنية قيمة هذا التمثيل والحياة فى هذه البوادى المجدبة أمر شــحيح ضنين ! .

أليس طيَّ هذه الصورة التمثيلية تجسيم الدين الذى جاء به النبــى – صلى الله عليه وسلم – فى صورة الغيث المغيث الذى تقــام لــه الأعيــاد ، وتُــزَفُّ به البشرى عند أهل البدية البعيدين عــن المنابــع والأنهار ؟! إن هذا التمثيل لحافز للعاقل على أن يكون في الأمثل من هذه الطوائف .

٣– تصديــر الحديث بأســلوب غــالب مــن أســاليب الإثــارة والتشويق : ــ

وهى – كما يرى الدكتور كمال عـــز الديـن – أفانيـــن لا ينتـــهى العجـب منها [١٠] ، وسنكتفى بإيراد بعض منها ؛ فمن ذلك لفظ (العجـــب) فيما جاء عن صهيب – رضى الله عنه – عن النبى – صلى الله عليه وسـلم – أنه قال : " عجباً لأمر المؤمن ؛ إن أمـــره كله له خـــير – وليـس ذلك لأحد إلا للمؤمن – إن أصابته سراء شكر فكان خـــيراً لــــه ، وإن أصابته ضراء صـــبر فكان خـــيراً لــــه " . [١١]

والعجب تعبير عن روعة تأخذ القلب لمثير يعظم و يخفى سببـــه ، إلا أنه كذلك فى الغالب إذا نُسب إلى البشر ، ويخرج عن ذلك أحياناً إذا قصـــد به إثارة الاهتمام بالخبر مع علم المتكلم بالسبب الذى يبطل عنده العجـــب ، ويكون القصد منه بعث النشاط لدى المخاطب ، وإثارة الانتباه إلى ما يكـــون العجب منه ؛ حملاً للسامع على الاهتمام ، ويكون معناه لازم العجب وهـــو الرضا والقبـــول ، وفى ذلك تنـــويه بشأن المرضى عنه ، وتعظيم لعملـــه ؛ فلما أراد النبى – صلى الله عليه وسلم – تعظيم أقـــدار هـــذه الأفعـــال فـــى القلوب أخبر عنها باللفظ الذى يقتضى التعظيم ؛ حثاً على فعلها ، وترغيبـــاً فى المبادرة إليها .

ومن ذلك تقديم الخبر العجيب عند السامع لعدم جريه علـــى المـــألوف العام من القواعد والعادات ؛ فتشرئِبُّ إليه القلـــوب متمثلـــة فـــى الأســـماع والأنظار لتدرك ما وراءه ، وتستشرف المعنى الذى يقصده الرسول الكريـــم – صلى الله عليه وسلم – ، ومنه ما جاء عن أبى هريرة – رضى الله عنـــه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " سبق درهم مائة ألف درهم ! قيل : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ ، قال : كان لرجل درهمـــان فتصدق بأحدهما ، وانطلق آخر إلى عرض ماله ؛ فأخرج منه مائة ألف درهم فتصدق بها " . [١٢]

وفى هـــذا الحديث قـــدَّمَ الرسول – صلى الله عليه وســـلم – أمـــرًا يستثير السؤال ، ولاشـــك أن سبـــق درهم مائة ألف أمر عجيـــب ، ولكـــن حينما يوضح الرسول– صلى الله عليه وسلم – إن المتصـــدق بدرهـــم قـــد أخرج نصف ما يملكه من مال ، والآخـــر لـــم يخرج إلا اليسير مما يملـــك من الأموال الطائلة – زال العجب من سبق الدرهم للمائة ألف ، والمـــال – فى نهاية الأمـــر – مال الله قليله أو كثـــيره ، والعـــبرة بمقـــدار الإيثـــار وحجـــم التضحية ؛ فالمتصدق بالنصف من أصل المـــال غـــير المتصـــدق بالبعض من عَرَضِهِ وحواشيه .

٤– الألفاظ الدالة على العـــدد : ـــ

وذكر العدد في بداية الحديث يكون بقصد إثارة السامع إغـــراءً بـــه أو تحذيرًا منه ، ثـــم يعقبه البيان والتفصيل ؛ فعن أبى هريـــرة – رضـــى الله عنه – قال : قال رســـول الله – صلى الله عليـــه وســـلم– : " كلمتـــان

خفيفتان على اللســان ، ثقيلتان فى الميـزان ، حبيبتان إلى الرحمـن : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيـم " . (١٣)

والبـدء بالنكرة المثناة تحيير يدير ذهـن الســامع ، يَخِــفُّ شــيئاً فشيئاً بتلك المخصصات المتتاليــة من الصفات المغـــرية ، ولكـن كلمـا تخصصت النكـرة بوصف منها زادت ثورة الشوق فى النفس لمعرفة هاتين الكلمتين .

ثانيًا – أســاليب التوكيـد والتقريـر : –

١– الإعــادة والتكــرار : –

وهـى سنة بيانية من سـنن العـرب ، وقال السيوطى فى مزهـره : " من سنــن العرب التكرير والإعادة إرادة الإبــلاغ بحسـب العنايـة بالأمــر " . (١٤)

وهذه هى الغاية التى يقصد إليها المعلم المعصوم – صلــى الله عليــه وسلم – من التكرير ، ويصرح لنا بها أنـس بن مالك – رضى الله عنــه – إذ يقــول : " كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يعيد الكلمة ثلاثا لتعقل عنه " . (١٥)

ويضع البخاري فى صحيحه بابا لإعادة الحديث بهذا العنوان : " بــاب من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه " (١٦) **؛ فيذكر الخصيصة والعلة ، ويزيـد الخطابى فيقول :** إعادة الكلام ثلاثا : إما لأن من الحاضرين من يقصر فهمه عن وعيه ، فيكرره ليفهم ، وإما أن يكون القول فيـــه بعـض الإشـكال ؛ فتتظاهر بالبيان ، وقال أبو الزناد : أو أراد الإبلاغ فى التعليم ، والزجر فـى الموعظة .

ومن أمثلة ذلك مـا جــاء عن أبى هريـرة – رضى الله عنه – قال : " جاء رجل فقال : يا رسول الله من أحق الناس بحسن صحابتى ؟ قال : أمــك . قال :ثــم من ؟ قال : أمــك . قال : ثم من ؟ قال : أمــك . قال : ثم من ؟ قال : أبــوك " . (١٧)

بعد الإجابة الأولى أراد السائل أن يعرف من يلى الأم فى زيادة الحرمة ، وأحقية حسن الصحابة ؛ فأراد الرسول – صلــى الله عليــه وسـلم – أن يقرر فى نفسه واجب حسن الصحابة للأم ؛ فأعاد الجواب الســابق ، ولـم يتوقع أنه إذا سأل للمرة الثالثة عن التالي للأم فى حسن الصحابة أن يجيبـه الجواب نفسه .

ويعنى ذلك منه – صلى الله عليه وسلم – **تأكيد حق الأمومة تـأكيدا لا يتأتى معه غـبن ، وإذا كان الله قد سـوى بين الوالدين فى خفض جنــاح الــذل من الرحمة ، وفى الإحسان العــام إليهما ، وعـدم الخروج عليـهما بالتأفف من حال يضيق بها الابن منهما – فقد خـص الأم بـالحمل كرهـا والوضع كرها ، وبالحمل وهنا على وهن ، وذكر الزمن الذى هو أشد عليها**

من عمر ولدها أجمعه ؛ فقال : (وحمله وفصاله ثلاثون شهرًا) ليبين لنا : كم في هذه الثلاثين للأم من سهر وضنى يكفل لها – وحدها – أن تستحق المكافأة بأعظم البر والحنان .

ولذلك نرى أن تكرار اللفظ النبوى فى الجواب ، حتى ذكر ثلاث مرات كالتنبيه لهذه الثلاث : الحمل كرها – والوضع كرها – والفصال وما فيه من المشاق ، وإذا لوحظ أن السائل كان يعطف جملة السؤال بـ (ثم) شعرنا من صنيعه أنه كان يريد النقلة بعيدًا عن الأبوين ، ظنًّا منه أن عرفان حقهما أمر معلوم للجميع بالضرورة ، وقضية مفروغ منها .

ومن هذا القبيل ما جاء عن عبد الله بن مغفل فى قوله – صلى الله عليه وسلم – : " اللهَ . اللهَ فى أصحابى ؛ لا تتخذوهم غرضًا بعدى ؛ فمن أحبهم فبحبى أحبهم ، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم ، ومن آذاهم فقد آذانى ، ومن آذانى فقد آذى الله ، ومن آذى الله يوشك أن يأخذه " . (١٨)

تكرر فى صدر هذا الحديث الشريف اللفظ الجليل لتأكيد التحذير ؛ فيكون على معنى : احذروا غضب الله بسبب النَّيْل منهم باتخاذهم غرضًا ؛ فالتحذير المكرر يدل على إعظام السبب وإكباره ، ويستلزم إكبار الصحابة وإكرامهم على وجه التأكيد .

ثم فى باقى الحديث نجد ألفاظاً أعيدت ، وهى – وإن كان تكرارها يستلزمه بناء المعنى على المكرر – إلا أنها تقرر تكريم الصحابة ، وتزيد من إكبارهم ، وتؤكد ضرورة رعاية قدرهم ، وكيف لا يكون الأمر كذلك ومن أحبهم فبحبه لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد أحبهم ، ومن أبغضهم فهو مبغض لحبيب الله ، ولينتظر العذاب الوشيك من الواحد القهار .

٢– التوكيد اللفظي بالأداة : –

ومنه استخدام الأداة (إن) للتأكيد على أمر يدفع الظن الملوح به ، وتقرير حقيقة الأمر لإزالة أي لبس يمكن أن يقع ، كما جاء عن صفية أم المؤمنين – رضى الله عنها – أنها قالت : " كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – معتكفًا ؛ فأتيتُهُ أزوره ليلاً ، فحدثتُهُ ، ثم قمتُ لأنقلبَ ؛ فقام معي حتى إذا بلغ باب المسجد مَرَّ رجلان من الأنصار ؛ فلما رَأيَا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أسرعا ، فقال :على رسْلِكُمَا ؛ إنَّهَا صفية بنت حُيَىٍّ ؛ فقالا : سبحان الله يا رسول الله ! ؛ فقال : إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم ، وأنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شرا ، أو قال : شيئا " . (١٩)

فإسراع الرجلين فى هذا المقام مشعر بالتحرج من رؤية الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى هذه الحال ، وعدم تحديدهما الموقف بمعرفة

المرأة مجال للظن – وإن بعد اعتقادهما كل البعد أن يلم نبيهما بما يريب – فإتيان (إن) فى الجملة الأولى لتأكيد المعرفة بالمرأة ، ويدل بطريق التعريف على الظن الذى لوح به إسراع الرجلين ، ولم يشفع بمؤكد آخر ؛ لأنهما – وحاشاهما – لم ينكرا على رسولهما شيئا ، وقد راعهما أن يجعل هو إسراعهما على شىء من الاتهام ؛ فيطلب منهما الأناة في السير ، ويعلن لهما بالجملة المؤكدة بالأداة تبرئا لساحته الشريفة ؛ فعجبا وتعجبا إظهارا لطهارة ساحتهما من ظن السوء .

وقد جاء رده – صلى الله عليه وسلم – مصدرا مرة أخرى بـ (إن) تنبيها لما ينبغي أن يعلم على وجه من التأكيد ، وهو شدة ملابسة الشيطان لقلب الإنسان ، والفعل المضارع المخبر به يفيد تجدد نفثات الشيطان ونزغاته ، و التعبير بـ (مجرى الدم) كناية عن القلب ؛ لأنه أخص أجهزة الجسم بتصريف دمه ؛ فإذا انبثق الدم مشفوعا بنفثته إلى باقي الأعضاء أصاب كل قاصية عن القلب .

ولما تعجبا بقولهما : (سبحان الله) كان تعجبهما كاستبراء النفس من تهمة ألمت ؛ فكان جوابه – صلى الله عليه وسلم – مؤكدا حرصه الشديد عليهما ، وخشية أن يقدر الشيطان علي النفاذ إليهما بقذفه الشر فى قلبيهما ؛ فحسن ذلك إدخال (إن) على جملة الخشية .

والقسم من أدوات التوكيد اللفظى ، وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – يؤكد به ما يستحق المقام توكيده من المعانى ، وكانت ألفاظه فى البيان الكريم متفاوتة القوة مع تفاوت المثيرات والدوافع ، فيقول – صلى الله عليه وسلم – مرة : (والله) ، وثانية (وايم الله) ، وأخرى (والذي نفسي بيده) ، أو (ومقلب القلوب) ، أو (والذي نفس محمد بيده) ، أو (والذي نفس أبى القاسم بيده) ؛ فمن ذلك ما جاء عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصرانى ، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار " . (٢٠)

فالملاحظ أن النبي – صلى الله عليه وسلم – بدأ حديثه بالقسم (والذي نفس محمد بيده) ، والقسم هنا ضروري لأنه أخبر بقضية غيبية يمارى فيها اليهود و النصارى أشد المماراة ؛ بل يذهب بعضهم إلى نقضيها ؛ لذا فإن هذا الخبر يقلب ما يؤمن به هؤلاء وهؤلاء رأسا على عقب ، والخبر المجرد من التوكيد لا يكفى فى هذا المقام .

ثم إن رسول – صلى الله عليه وسلم – لم يختر اسما من أسماء الله الحسنى ليقسم به فى هذا المقام ، وإنما جاء باسم الموصول لمغزى كامن فى صلته ؛ فالرسول – صلى الله عليه وسلم – يخبر هنا عن أمر من أمور الآخرة ، وهذه الأمور لا يستطيع أن يحدث فيها إلا بما علمه عن ربه ؛

فلابد فيها من وحى ؛ لأنه كما قال – عز وجل – تزكية لكلامه – صلى الله عليه وسلم – : (وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحي) (النجم :٣و٤) ؛ وذلك لمجابهة الإنكار الشديد فى نفوس اليهود و النصارى الذين يرون نقيض هذا الأمر ؛ فلن يدخل الجنة – فى زعمهم – إلا من كان هودًا أو نصارى .

كذلك نلاحظ أنه عَدَلَ عن الضمير إلى الاسم الظاهر ؛ فلم يقل : (والذي نفسي بيده) كما هو المتوقع ، وإنما قال : (والذي نفس محمد بيده) ، وذلك ليومئ إلى أن نفسه بيد الله ، لا بصفته نبيًا ، ولكن بصفته إنسانًا مخلوقا ؛ فإذا كانت نفس الإنسان بيد الله فعليه ألا يكذب على الله ، وألا يتقوَّلَ عليه ، وألا يخفى الحقائق وهناك من يعلم السر وأخفى .

وهناك (النون) من أدوات التوكيد اللفظي ، وهى مختصة بتوثيق الأفعال المضارعة ، والدالة على الطلب ، والبيان النبوي الشريف يؤكد بهذه النون أفعالاً يوجب السياق المقامي توكيدها ؛ من مثل قوله – صلى الله عليه وسلم – فى نصح أبى ذر– رضى الله عنه : " يا أبا ذر أني أراك ضعيفاً ، وأني أحب لك ما أحب لنفسي : لا تأمَّرَنَّ على اثنين ، ولا تولَيَنَّ مال يتيم ". (٢١)

من المعلوم أنه كلما اشتد عطف المرء على ابنه أو صاحبه اشتد حرصه على فائدته ونصحه ، وكلما اشتد الحرص استدعى أمره تأكيد النصح ، والإمارة والولاية على الأموال من المسائل التي لا يُؤْمَنُ معها الزللُ ، والنبى – صلى الله عليه وسلم – أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؛ لذلك أظهر لصاحبه ما يراه فيه من سبب لا يؤمن الحيف معه ، وقدَّم بين يديه اعتذارًا لطيفًا يضمن التساوي بين الناصح و المنصوح فى حب المنفعة ؛ ليكون ذلك مدعاة إلى الإيمان بالنصيحة على وجه أشد ، وتهيئة لوجوب الامتثال ،ثم عقَّب بنهيه نهياً مؤكداً عن الفعلين اللذين يحب لصاحبه البعد عنهما إحرازاً للسلامة ، وعصمة للدين .

وكذلك (لام التوكيد) فيما جاء عن المقداد بن الأسود ، أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال " لقَلْبُ ابن آدم أشدُّ انقلاباً من القدر إذا استجمعتْ غلياناً " . (٢٢)

يقرر الحديث الشريف تقلب قلب ابن آدم ، ويؤكد على تحوله من حال إلى حال ؛ لأن قلب ابن آدم هو محل نوازعه ، ومكان آماله وأحلامه ، وميدان الصراع بين الخير والشر ، ويتضمن هذا التقرير توجيه المرء إلى حماية القلب ؛ حتى يتخوله بما يحييه من الطاعات ، ويقلّبه بين الخوف والرجاء ؛ ولذا سبقت اللام المسماة بـ (لام الابتداء) التى تفيد توكيد جملة الخبر تنبيهًا على وجوب الاهتمام بمضمونه ، وما يترتب عليه من أمور مهمة .

كما جاء استخدام أفعل التفضيل فى (أشد انقلابا) تصعيدا للمعنى ، وزيادة فى قسر السامع على الانتباه ، ولفته إلى معرفة الفاضل من المفضول فى الكلام ، وفى ذكر المفضل عليه – وهو أمر يبلغ الغاية فى جنسه – إعلاء لشأن المفضل ، وهو المسند إليه المرتكز على لام الابتداء ؛ فالخبر كله طردا وعكسا فى جهة التقرير والتأكيد كالحلقة المفرغة ، وهذا بعض سر البيان الكريم .

وقريب من هذا أداة التوكيد (أما) مفتوحة الهمزة والميم المفردة ، حرف تبدأ به الجملة للتنبيه والإشارة إلى تحقق ما يذكر بعده ، وتأكيد مضمونه ، وهى تدخل على (أن) مفتوحة الهمزة مشددة النون فتكون بمعنى (حقاً) ، أو على (إن) مكسورة الهمزة فتكون للتنبيه إلى ما يذكر بعدها لتقريره ، أو على الجملة الفعلية فتكون للعرض الدال على الاهتمام بالمعروض ؛ فكل أحوال استعمالها ترشد إلى تقرير مضمون ما تدخل عليه .

وأكثر ما وردت فى البيان النبوى أن تدخل على (إن) المكسورة الهمزة للتنبيه والتحقيق ، والتقرير والتوكيد مستفادان منها ومن (إن) معاً لشدة الاهتمام ، ومنه ما جاء من حديث أبى قتادة – رضى الله عنه – عن النبى – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : " أما إنه ليس فى النوم تفريط ، إنما التفريط على من لم يصلِّ الصلاة حتى يدخل وقت الصلاة الأخرى " . (٢٣)

والحديث تسكين لأنفس الصحابة الذين راعهم فوت الصلاة عن وقتها بنوم مستغرق ؛ حتى كأنهم أنكروا على أنفسهم ما صنعوه ؛ فهو – صلى الله عليه وسلم – يؤكد لهم عدم تفريطهم ؛ لأنهم لا يملكون أنفسهم ؛ فمن آيات الله منامهم بالليل والنهار ، وهو الذى يتوفاهم ويرسل أرواحهم إلى أجل قريب فيعذرهم من أنفسهم .

ويأتى حرف التنبيه سابقًا حرف التأكيد (أما – إنه) جاعلاً اسمه ضمير الشأن ؛ فيصعد الاهتمام بمضمون ما يليه ، ثم يصدر الحكم بنفى التفريط منهم وقت نومهم ، مقررًا بكل ما سبق ، ثم يؤكد الحكم مرة أخرى بحصر ما نفاه – وهو التفريط – فى غير ما نفاه عنه – وهو النوم ؛ فيخصه بمن يضيع الوقت حال يقظته حتى تدخل الصلاة الجديدة

٣- التوكيد بالقصر : –

حيث تعد طرق القصر ضروبًا من التأكيد للمعاني على وجه أخص ، سواء كان النفي لما عدا المقصور عليه عامًّا أو خاصًّا ؛ فقد أتى القصر فى البيان النبوي كثيرًا للتأكيد مطابقة لما تقتضيه الأحوال ، ومنه القصر عن طريق (النفي والاستثناء) فيما جاء عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – " من سكن

البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن،وما ازداد عبد من السلطان دنوا إلا ازداد من الله بعدا ".(٢٤)

فالحديث يذكر أمورا من أمور الناس يجدر بها أن تؤكد ؛ منها ضرر القرب من الحكام إلا للنصيحة الواجبة ؛ فإذا لم يكن للنصيحة فليس إلا للملق وإظهار الرضا بالحاكم خوفا وطمعا ، وهذا مزلة من مزال الشيطان لصاحب السلطان ، ويكون جانب الرحمن – فى هذه الحالة – مقابل جانب السلطان ، والمؤمن هو الوسط ؛ فبمقدار ما يخطو إلى الله يبعد عن السلطان ، وبمقدار ما يقرب من السلطان لغير غرض دينى يزداد عن الله بعدا ، وإلى الفتنة قربا .

ومنه القصر بـ (إنما) التي تدخل على أمر من شأنه أن يكون معلوماً ، وأحسن مواقعها التعريض ، ومن هذا ما جاء عن أم سلمة- رضى الله عنها – قالت : " سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جلبة خَصْم بباب حجرته ؛ فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم ولعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض ؛ فأحسب أنه صادق فأقضى له فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليحملها أو ليذرها " . (٢٥)

يؤكد الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى هذا الحديث بشريته ؛ فيقصر نفسه عليها دون ما يقتضى علمًا بالغيب إلا ما يظهره الله عليه ؛ ليحذر الناس أن يجر أحدهم حب النصر بالباطل إلى أكبر الكبائر؛ وذلك بأن يغش النبى – صلى الله عليه وسلم – باللسان الخلوب ليستحل به لنفسه حق غيره ممن لا يضارعه فى البلاغة واللسن .

وفى كلامه – صلى الله عليه وسلم – تعريضان : أولهما ببراءة القاضي من ذنب حكم جانبه فيه الصواب مخدوعاً غير قاصد ، ولولم يكن الرسول – صلي الله عليه وسلم – هكذا ، وإنما هو تعليم للأمة ، وتوجيه وإرشاد .

وثانيهما تعريض بفداحة الجرم اللازمة لمفهوم المجازاة بحمل قطعة من النار ليست شيئاً سوى ما استحله طمعاً في حق غيره ، أترى عاقلاً يخير بين حمل النار أو تركها ؛ فيجرؤ علي حملها بخديعة الحاكم والقاضي ، وتزييف الدليل ؟ ! .

ومنه القصر بحرف العطف (لكن ، لا ، بل) ، وهو أصرح طرق القصر ؛ إذ يذكر فيه ما أثبت له ، وما نفى عنه تأكيدًا لمضمون الكلام ، ومن ذلك ما جاء عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " ليس المسكين الذى ترده اللقمة و اللقمتان ، والتمرة و التمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يفطن له فيتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس " . (٢٦)

و(لكن) في هذا الحديث مسبوقة بالنفي ، وما بعدها إيجاب ، ونفى الشيء عن شخص أو أمر ، وإثباته لسواه يحقق معنى القصر والاختصاص ، إلا أن (لكن) هنا ليست للعطف ؛ لأنها مسبوقة بالواو ؛ بل هي للاستدراك .

والصيغة التي ورد عليها الحديث تنفى خطأ ، وتثبت صوابًا ؛ فهي – على هذه الكيفية – بقصر القلب أشبه ، لتصحيح ذلك الفهم الخاطئ لمعنى المسكين ، وبالتالي تقرير إبطال معتقد المخاطب إبطالاً على سبيل الحقيقة .

٤– التوكيد بالتقديم : –

وهو من أهم وسائل التوكيد – إلى جانب التكرار ، وأدوات التوكيد المعروفة ، وأسلوب القصر ؛ فتقديم جزء من الكلام – بمقتضى البلاغة – حقه أن يتأخر فى الترتيب – بمقتضى الأصل العام فى القواعد – يفيد أموراً ؛ منها القصر للمتأخر على المتقدم بدلالة المقام .

ومما يحمل على ذلك تقديم الجار والمجرور فى كثير من مواضع الحديث النبوى الذى جاء عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا قام من الليل يتهجد قال : " اللهم ربنا لك الحمد ، أنت قيوم السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت مالك السماوات والأرض ومن فيهن ، ولك الحمد ، أنت الحق ، ووعدك الحق ، ولقاؤك حق ، وقولك حق ، والجنة والنار حق ، والنبيون حق ، ومحمد – صلي الله عليه وسلم – حق ، اللهم لك أسلمت ، وبك آمنت ، وعليك توكلت ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، وإليك حاكمت ؛ فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم ، وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت " . (٢٧)

فهذه الأخبار كلها على معنى التخصيص لتأكيد الثقة بالمقصور عليه سبحانه ، والاعتداد به وحده ، والامتداد منه وحده ، والتوكل عليه وحده ؛ فالحمد ، والإسلام ، والإيمان ، والتوكل ، والإنابة ، والمخاصمة ، والمحاكمة من أفعال الرسول – صلى الله عليه وسلم – مقصورة على الله وحده ، مدلولاً عليه تعالى بكاف الخطاب تشرفاً بعز الحضور ، لا يتعداه إلى غيره شيء منها تحقيقاً لمقام ربوبيته ، والتعبير بالماضى يشمل فى المعنى ما حضر وقت الخطاب وما يستقبل ، ثقة واثقة فى ثبات العزيمة على العقيدة ، وتساوى ما سيكون بما قد كان .

وفى الحديث صيغ أخرى للقصر تتضافر كلها على تأكيد التقديس والاعتراف بالجلال الإلهي ؛ منها تعريف الطرفين فى هذه الأخبار:(أنت الحق – وعدك الحق – أنت المقدم – أنت المؤخر) .

فمعنى العبارات : ما الحق من الذوات إلا ذاتك ، وما الحق من الوعد إلا وعدك ، وما المقدم إلا أنت ، وما المؤخر إلا أنت – صفات من صفات الجلال هى له عين اليقين ، وقد يظن بعضهم اتصاف الحادث بشيء منها على الاشتراك فى اللفظ ، والرسول – صلى الله عليه وسلم – ينفى عن نفسه بتخصيص هذه المعانى بربه – عز وجل – أن يكون من الظانين ظن السوء – وحاشاه – ويرشد من بهداه يسترشد إلى سواء السبيل .

ولما كانت هذه الصفات كلها صفات الألوهية الحقة ، وأرباب متفرقون لا يملكون منها شيئاً – انتفت عنهم بأداة النفى لفقدهم أسبابها وصفاتها ، وأثبتت بأداة الاستثناء لله – جل وعلا – المستحق ثبوتها له وحده مقصوداً بضمير الخطاب ، تأكيداً وتحقيقاً لما انطوت عليه الضلوع من عقيدة الأنبياء : (لا إله إلا أنت) وكأن العبارة تقول : لا إله إلا من كانت له الأفعال والصفات المذكورة فيما سلف ، وهى لك يا الله وحدك ، وليست لسواك ؛ فلا إله إلا أنت .

ثالثًا- الاعتماد على الدلالات الإشارية والخطية فى الأداء النبوي :

ويقوم هذا اللون من الأداء على أصناف أخرى من الدلالة على المعانى غير دلالة اللفظ ، وها هو الجاحظ يضع يده منذ أكثر من ألف عام على نوعى الاتصال اللفظي وغير اللفظي ، ويرى أن الدلالات تتنوع تبعاً لسياق المنطوق فى محيطه اللغوي ، وسياق المفهوم فى المحيط الخارجي المصاحب للنص ؛ فيقول : " وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد ؛ أولها : اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العقد ، ثم الخط ، ثم الحال التي تسمى نصبة ، والنصبة هي الحال الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف ، ولا تقصر عن تلك الدلالات " . (٢٨)

كما يعقد ابن جنى فى خصائصه بابًا بعنوان : " باب فى أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها ، وما حملناه عليها " ، ويلتفت فيه إلى ما يسمى الآن بالسياق غير اللغوى ، أو السياق الحالى الخارج عن النص ، ويسميه بـ (الغائب) بما يضم من أحوال شاهدة مختلفة ومتنوعة قد صاحبت السلوك الكلامى ؛ فيقول : (الغائب ما كانت الجماعة من علمائنا تشاهده من أحوال العرب ووجوهها ، وتضطر إلى معرفته من أغراضها وقصودها ... وليست كل حكاية تروى لنا ، ولا كل خبر ينقل إلينا يشفع به شرح الأحوال التابعة له ، المقترنة به " . (٢٩)

ومعنى هـذا أن إدراك المعنى على الوجـه الدقيـق يتوصل إليه بـالقرائن الحالية المتمثلة فى الإشارات والخطوط ، وغير ذلك من أسـباب ورود الحديـث النبوى ، والأحوال المحيطة بالكلام من خارج النص ، والتى تقوم – جنبـاً إلـى جنب مع القرائن اللفظية من داخله – بدورها فى تحديد المعنى المقصود توصيلـه إلى المتلقى .

وقد بلغ الأداء النبـوى قمة بلاغته حينما اعتمد على المواءمة الدلالية بين العبارة والمواقف الحركية والإشارية التى تصاحب التعبـير اللغـوى ، كل ذلـك بدقة متناهية يمكن القول معها إن الحديث النبوى الشريف فى دلالاتـه بالإشـارة اللامحة البسيطة قد كشف عن طاقة بيانية رائعة وقدرة متدفقة على عمل صـور فى العقل والعين محملة بطاقات دلالية واسعة الثـراء ، لا يستطيع تأديتها اللفـظ وحـده . (٣٠)

فللإشارات والحركات والأفعال دلالة عميقة فى إيضاح المعانى وترسـيخها فى النفس ، ودارس الحديث النبوى يرى من ذلك الشىء الكثير الذى يـدل علـى اهتمام النبى – صلى الله عليه وسلم – البالغ بوسائل الإيضاح فى تعليـم أمتـه ، وشغل الحاسة مع العقل فى لباقـة المعلـم الحريص على البعـد عن الأسـلوب المباشر فى التلقين إلى أسلوب يكون الفعل فيه قبل القول ، والإشارة فيـه قبـل العبارة ؛ فيأتى الأسلوب فريدًا مشوقًا ؛ فإذا أتبعه البيان ازداد الغـرض تقـرراً لا يسهل فى العادة نسيانه .

ومن هذا القبيل ما جاء عن ابن مسعود – رضى الله عنه – قال : " خَـطَّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم – خطًّا مربعـًا ، وخَـطَّ خـطًّا فـى الوسط ، وخَطَّ خطًّا خارجًا منه ، وخَطَّ خطوطاً صغارًا إلى هذا الخط الـذى فى الوسط من جانبه الذى فى الوسط ، وقال : هـذا الإنسان ، وهـذا أجلـه محيط به ، أو قد أحاط به ، وهذا الذى هو خارج أملـه ، وهـذه الخطـوط الصغار الأغراض؛فإن أخطأه هذا نهشه هذا،وإن أخطأه هذا نهشه هذا ". (٣١)

وهذا الحديث عبارة عن رسـم توضيحي لإحاطة الأجـل بالإنسان من كـل الجهـات ، ومعه أغراضه الناهشة من الأمراض ، والآفات القاتلة ، والمصـائب المتراشقة كالسهام ؛ تخطئ مرة وتصيب أخرى ، أما الأمل المظنون قربـه فـهو بعيد بعيد ، وخارج دائرة القرب المحاطة بالأجل وجنوده وأغراضه الناهشة .

ويمكن إظهار هذا الرسم التوضيحي على النحو الآتي :

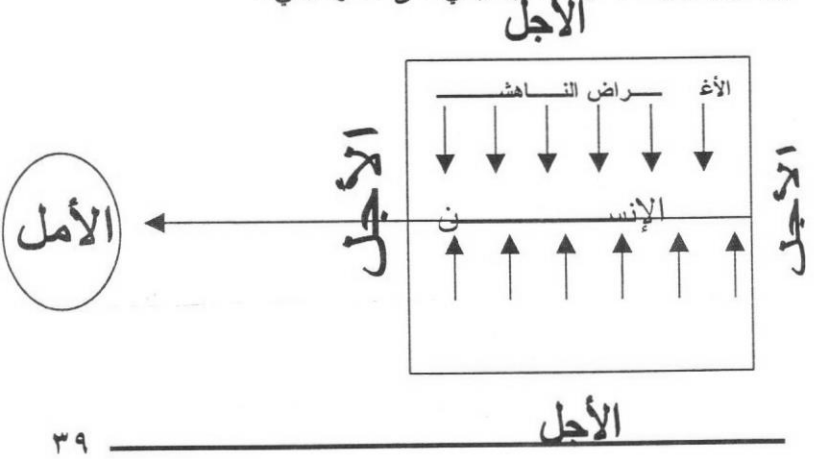

والأمثلة كثيرة منها قوله – صلى الله عليه وسلم – : " أنا وكافل اليتيم فى الجنة هكذا ،وأشار بالسبابة والوسطى،وفرج بينهما شيئا".(٣٢)

فحق على من سمع هذا الحديث أن يعمل به ليكون رفيق النبى – صلى الله عليه وسلم – فى الجنة ، ولا منزلة فى الآخرة أفضل من ذلك ؛ فرفقة كافل اليتيم للرسول – صلى الله عليه وسلم – كرفقة السبابة للوسطى .

ومنها قوله – صلى الله عليه وسلم – : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، ثم شبك بين أصابعه " . (٣٣)

فتشبيك الأصابع بيان لوجه التشبيه ؛ أى يشد بعضهم بعضا مثل هذا الشد الواقع بين الأصابع المتشابكة ، ويستفاد من ذلك أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أراد المبالغة فى التأثير والتوصيل ببيان أقواله عن طريق الحركات والإشارة الممثلة لها ؛ ليكون الكلام أوقع فى نفس السامع .

ومنها ما جاء عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " لا تحاسدوا ، ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض ، وكونوا عباد الله إخوانا ؛ المسلم أخو المسلم : لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يكذبه ، ولا يحقره ، التقوى هاهنا ، ويشير إلى صدره ثلاث مرات ، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم ، كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وماله ، وعرضه " . (٣٤)

يشير الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى صدره ثلاث مرات ؛ لأن التقوى ليست فى حقيقتها مظهرا خاشعا جميلا فقط ؛ بل لابد من سلامة الداخل بجانب سلامة الخارج من العيوب والسوآت . والإشارة ثلاث مرات إلى الصدر تتضافر عن طريقها دلالة الفعل الحركى مع الفعل القولى للتوكيد على أن أكرم الناس عند الله هو أتقاهم ؛ لأن الله لا ينظر إلى الأموال والسلطة والوجوه والألوان ، ولكنه يعلم صدق العبد فى طاعته من خلال اطلاعه – وحده – سبحانه وتعالى على خفيات الصدور .

رابعا – الإكثار من استخدام أساليب الإغراء والتحذير والشرط : –

وتأتى أهمية هذه الأساليب من أن السامع إذا طرقت سمعه عبارات من مثل : (إياكم ، أو عليكم ، أو من يعمل كذا يلق كذا) انتفض من شواغله ، وألقى انتباهه ، وبخاصة إذا عرف فى محذره ، أو من يغريه ، أو المشترط عليه حرص الناصح الأمين .

ومن ذلك ما ورد عن ابن مسعود – رضى الله عنه – قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : " عليكم بالصدق ؛ فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ، و يتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإياكم والكذب ؛ فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ، ويتحرى الكذب حتى يكتب عند كذابا " . (٣٥)

فالنبي – صلى الله عليه وسلم – قد رغبنا فى الصدق ، بعبارة (عليكم) الدالة على ذلك ؛ لأن الصدق من متممات الإيمان ، ومكملات الإسلام ، وله ثمرات طيبة يجنيها الصادقون من راحة الضمير ، وزيادة الخير والبركة والكسب ، والفوز بمنازل الشهداء ، والنجاة من المكروه فى الدنيا والآخرة .

وكذلك حذرنا النبى – صلى الله عليه وسلم – من الكذب ، بعبارة (إياكم) الدالة على ذلك ؛ لأن الكذب من أهم صفات المنافقين الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، وله عواقبه الوخيمة فى الدنيا والآخرة .

و لنتأمل عبارة الرسول – صلى الله عليه وسلم – : وما يزال الرجل (يصدق – يكذب) ، ويتحرى (الصدق – الكذب) حتى يكتب عند الله (صديقا – كذابا) ؛ فذلك فى غاية الإغراء أو التحذير ؛ مما يدل على أن الصادق أو الكاذب يكون عامدا قاصدا لما يقوم به ؛ بل يكون مستمرا مصرا عليه لا يترك جهدا يبذله فى سبيل ذلك إلا وقد فعله وسارع فيه .

وهو إما يكون صديقا على المبالغة التى أوحت بها الصيغة ؛ لأنه يسعى إلى الصدق بكل شوقه وقوته ، ويتحراه بكل جهده وجهاده ، وإما على العكس يكون كذابا على المبالغة أيضا بحكم الصيغة الدالة على المبالغة ؛ لأنه لا يستحى من كذبه ؛ بل يستمرئه ويصر عليه ، ويتحراه ولا يتخاذل عنه أبدا .

ومما يقوى الإغراء أو التحذير فى الحديث ، ويزيده تأكيدا وتقريرا فى النفس ما ورد من روعة الحبك ، ودقة الصياغة فى تصعيد المعاني من خلال عبارة الرسول – صلى الله عليه وسلم – : " عليكم بالصدق ؛ فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة .. وإياكم والكذب ؛ فإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار... " .

وقد أطلق عليه ابن أبى الإصبع المصرى اسم (ترديد الحبك) ، " وهو أن تبنى البيت من جمل : تردد فيه كلمة من الجملة الأولى فى الجملة الثانية ، وكلمة من الثالثة فى الرابعة ؛ بحيث تكون كل جملتين فى قسم ، والجملتان الأخيرتان غير الجملتين الأوليين فى

الصورة ، والجمل كلها سواء فى المعنى " ،[٣٦] وهـــو تكريـر يجعـل الكلام فى تماسك واطـراد ، كأن جُمَلَهُ يدفعُ بعضُهَا بعضًا للغاية المطلوبة .

وأسماه الدكتور كمال عـز الدين (تصعـيد المعـاني) ، ويكـون واقعًا فى الجمل المتوالية بأن تُبْنَى كل تالية على لفظ من السابقة ، ويـرى أن ذلك أتـم فى معنى الترديـد ، وأكمل فى معنى الحبـك ، وقـد جـاء منه الكثير فى الحـديث الشريف ؛ فكـان غايـة فـى الجـودة ، وتقريـر المقصود ، وطيب الجرس .[٣٧]

ومن أمثلة أسلوب الشرط الذى يكثر اسـتخدامه فـى الأداء النبـوى الكريم ما جاء عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال : قال رسـول الله – صلى الله عليه وسلم – : " من نفَّس عن مؤمن كُرْبَةً من كُـرَبِ الدنيـا نفَّس الله عنـه كُرْبَةً من كُرَبِ يوم القيامة ، ومن يَسَّـرَ على مُعْسِـرٍ يَسَّرَ اللهُ عليه فى الدنيا والآخرة ، ومن ستر مسلمًا ستره الله فى الدنيـا والآخرة . واللهُ فى عـون العبـد ما كان العبد فى عون أخيه ، ومـن سلك طريقًا يلتمس فيه علماً سَهَّلَ اللهُ له طريقًا إلى الجنة ، وما اجتمـع قوم فى بيت من بيـوت الله يَتْلُونَ كتاب الله ، ويتدارسـونه بينـهم إلا نزلـتْ عليهم السكينـةُ ، وغشيتْهُمُ الرحمـةُ ، وحفَّتْهُمُ الملائكـــةُ ، وذكرهم الله فيمن عنـده . ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه " .[٣٨]

فأكثر مـا يكون من دلالـة أوَّلٍ على تَـالٍ ما بُدِئَ بالشـرط ؛ إذ إن جملة الشرط كالعلة فى حصول الجواب ، وترتُّب الجـزاء ؛ فضـلاً عـن إفهامه عموم الحكم ، وشموله لجميع ما صدق عليه اسم الشرط طردًا .

وفى قوله – صلى الله عليه وسلم – (والله فى عون العبـد) تقـدم الجواب على شرطه ، والجزاء على سببه لإثارة اهتمام كل سـامع ومتلـق إلى المسارعة فى إعانة إخوانهم بقوتهـم المحدودة لينالوا ما هـو أعظـم وأكبر مما قدموا من عـون ومساعدة ، ألا وهـو عـون الله الـذى لا ينقطع لأنه صادر عن قـوة لا محدودة ولا منتهية .

وفى قـوة الشرط صورة القصـر عن طريق الاستثناء من عمـوم النفى الواردة فى قوله – صلى الله عليه وسلم – (وما اجتمع قـوم فـى بيت من بيوت الله يتـلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلـت ...) ؛ ففيه ربط – أيضًا – للجزاء بالسبب ، لقصر السـبب علـى المسـبب ؛ فيعظم نشـاط المخاطب لفعل المقصور تحصيلاً لجزائه ، وتشـتعل همتـه حماسًا للأخذ بهذه الأسباب طمعاً فى نيل عواقبها الطيبة ، وأى فلاح أكـبر من أن يذكر المرء عند خالقه ، ويسمو من ماديته وطينيته إلـى روحانيـة الملائكة ونورانيتهم ! .

والجـزاء فى كل ذلك من جنـس العمل ، ولكن فى إطار الحسـنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ؛ فجزاء التنفيس التنفيـس ، ولنأخذ فـى

الاعتبار أن كربة يوم القيامة أشد هولاً من كربة الدنيا ، وكذا جزاء التيسير التيسير ، ولكن تيسير العبد على العبد قد يكون مرة أو مرتين أو عدة مرات على أقصى تقدير ، وما يناله من تيسير الله جزاء ما فعل سيكون دائمًا فى الدنيا والآخرة ، وكذلك جزاء الستر الستر ، ولكن العبد يستر أخاه مرة أو مرتين أو أكثر فى حدود ما تيسر له ، والله يستر عباده دائماً فى الدنيا والآخرة على أوسع درجات الستر .

وأضف إلى هذا أن فعل العبد فى حدود قوته وعمره القصير ، وصبره على الخير وطاقته على الاستمرار فيه ، أما جزاء الله فهو بحسب كماله وقوته وبقائه ، ولأن الله دائمٌ عطاؤه لا ينقطع أبدًا ، وحَىٌّ لا يموت أبدًا ، وقوته مطلقة ليس لها حَدٌّ – فجزاؤه على الخير القليل سيكون جزاءً وفيرًا عظيمًا ، ودائمًا مقيمًا ؛ إذا رحل العبد عن دنياه الفانية تبعه الخير والرضا من الله إلى أخراه الباقية ؛ فسبحان الذى أمرُه كلُّه عطاءٌ ، وقضاؤه كلُّه خيرٌ ، وجزاؤه وفاءٌ ؛ بل أوفى الوفاء .

المصادر والمراجع

(١) انظر " لباب الآداب " : أسامة بن منقذ ، دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٨٠ م ، ص ٣٣٠ – ٣٣٤ .
(٢) سورة " ص " : ٨٦ .
(٣) التقعيب كالتقعير ، وهو أن يتكلم بأقصى قعر فمه .
(٤) البيان والتبيين : أبوعثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، مطبعة الخانجى – القاهرة ١٩٧٥م ط .رابعة ، ج ٢ ص ١٧ ،١٨ .
(٥) لسانيات الاختلاف : د . محمد فكرى الجزار ، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع – القاهرة ٢٠٠١ م ، ط . أولى ، ص ٣٣٠ .
(٦) انظر " إعجاز القرآن والبلاغة النبوية " : الرافعى ، المكتبة التوفيقية – القاهرة ١٩٢٨ م ، ط . ثالثة ، ص ٢٩٥ – ٢٩٧.
(٧) انظر " المرجع السابق " : ص ٢٩٧ .
(٨) تيسير الوصول إلى جامع الأصول : ابن الربيع الشيبانى ، مصطفى البابى الحلبى – القاهرة ١٩٣٤ م ، ج ١ ص ٢٠ .
(٩) فتح البارى بشرح صحيح البخارى : ابن حجر العسقلانى " ت ٨٥٢ هـ " ، تحقيق / طه عبد الرؤوف سعد ، دار الغد العربى – القاهرة ١٩٩٢م ، ط . أولى ، ج ١ ص ٣٠٣ – ٣٠٥ .
(١٠) انظر " الحديث النبوى الشريف ؛ من الوجهة البلاغية " : د. كمال عز الدين ، دار اقرأ – بيروت ١٩٨٤ ، ط . أولى ، ص ٣٨٥ وما بعدها .
(١١) تيسير الوصول : ج ١ ص ١١٢ .
(١٢) السابق : ج ٣ ص ٣ .
(١٣) السابق : ج ٢ ص ٨٦ .
(١٤) المزهر فى علوم اللغة وأنواعها : السيوطى ، تحقيق / على البجاوى ، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة ١٩٥٨م ، ج١ ص ٣٢٢ .
(١٥) تيسير الوصول : ج١ ص ١٩٨ .
(١٦) عمدة القارى فى شرح صحيح البخارى : البدر العينى ، مطبعة منير الدمشقى – القاهرة (د.ت) ، ج ٢ ص ١١٥ .
(١٧) تيسير الوصول : ج١ ص ٤٤ .
(١٨) الجامع الصغير : السيوطى ، المطبعة الخيرية – القاهرة ١٩٠٣م ، ج١ ص ٤٦ .
(١٩) تيسير الوصول : ج١ ص ٣٥ .
(٢٠) من أسرار البيان النبوى : د . أحمد محمد على ، دار الصحوة – القاهرة ١٩٨٥م ، ط . أولي ، ص ١٣ . رواه مسلم .
(٢١) تيسير الوصول : ج ٤ ص ٢٥٧ .
(٢٢) الجامع الصغير : ج ٢ ص ١٠٤ .

(٢٣) تيسير الوصول : ج٤ ص ١٧٩ .
(٢٤) السابق : ج٢ ص ٢٨٨ .
(٢٥) السابق : ج ٤ ص ٤٨ .
(٢٦) الجامع الصغير : ج٢ ص ١١٢ .
(٢٧) تيسير الوصول : ج ٢ ص ٦٩ .
(٢٨) البيان والتبيين : ج ١ ص ٤٣ .
(٢٩) الخصائص : أبو الفتح عثمان بن جنى ، تحقيق / محمد على النجار ، دار الكتاب العربى – بيروت (د .ت) . ج ١ ص ٢٤٥، ٢٤٦ .
(٣٠) انظر " العبارة والإشارة " د . محمد العبد ، دار الفكر العربى – القاهرة ١٩٩٥م ، ص ١٨٥ وما بعدها .
(٣١) تيسير الوصول : ج١ ص ٤٣ .
(٣٢) فتح البارى : ج ١٥ ص ٨٦ .
(٣٣) السابق : ج ١٦ ص ٣٢٥ .
(٣٤) جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثا من جوامع الكلم : ابن رجب الحنبلى ، دار الحديث – القاهرة ١٩٨٠م ، ط خامسة ، ص ٣٩٥ ، رواه مسلم .
(٣٥) الجامع الصغير : ج ٢ ص ٥٣ ، رواه البخارى ومسلم والترمذي .
(٣٦) تحرير التحبير : ابن أبى الأصبع المصرى ، تحقيق د . حنفي محمد شرف ، المجلس الأعلي للثقافة – القاهرة ١٩٦٣م ، ج٢ ص ٣٥٢ .
(٣٧) التكرير بين المثير والتأثير : د . كمال عز الدين على السيد ،عالم الكتب – بيروت ١٩٨٦م ، ط .ثانية ، ص ٢٣٦ .
(٣٨) جامع العلوم والحكم : ص ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، رواه مسلم .